

ذكرياتى عن التدخين

تقديم

هذه عاضرة أقيمتها في جمعية الهداية الإسلامية بالقاهرة يوم ١١ ديسمبر سنة ١٩٤٧ ، وقد رأيت أن أضفيها أمام أبصار المدخنين ، وخاصة الشباب منهم ، لعل في هذه الذكريات عظة تذكر أولئك السائرين نحو إدمان التدخين ، فتقدم إلى الصواب ، وتصدم عن هذه الآفة الخبيثة التي ابتلى بها الشرق المسكين ، فخر بسببها المال والصحة والعزيمة ... لأن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وماتوفيقى لإلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

أحمد الشرباصى

ربه أن يجعلنى وقفاً على طلب العلم ، كما كانت العادة شائعة عند أهل الريف ..

وبعد أن حفظت القرآن الكريم ، رحلت من قريتي « البجلات » وهى من أكبر القرى في مديرية الدقهلية إلى معهد دمياط الدينى العلمى الإسلامى ، ولبست العمامة والسكاكولة مع أن مصرى لم يتجاوز يومئذ الثانية عشرة وكان نصيبى أن أسكن مع زميل يكبرنى بسنوات ، وإن كان متخلفاً عنى فى الدراسة ، وكان من المدخنين المدمنين ، الذين يبذلون أكثر أموالهم فى اللغائف ، فإذا ما دخن واعتدل مزاجه — كما يعبر — فعلى الدنيا بطعامها وشرابها ومتاعها السلام .

وكثيراً ما كان ذلك الزميل ينتهى من طعامه عجلًا ثم يجلس على المقعد ، مسنداً ظهره إلى مؤخرته فى تيه وخيلاء ، ثم يشعل لفافته ، ويمتص دخانها بشفتيه ، بعد أن يتناولها بطريقة تمثيلية ، ويضعها فى جانب فمه ثم ينفث سحب الدخان فى جو الغرفة الضيقة الحظيرة ذات المنافذ القليلة ، ويده مجلته أو كتابه يقرأ فيه بلا متابعة ، ونظراته الحاملة الزائفة تتردد هنا وهناك ، فيخيل إلى — لقلة تجاربى — أن سحب الدخان تتصاعد وكأنها ألوية مجد أو شارات بطولة ، وأنهم أن ذلك الزميل يجلس جلسة أمير أو عظيم ، وأنتى لن أدرك العظمة والراحة إلا إذا اقتديت به ، وكنت مثله فى

معذرة إذا تحدثت عن نفسى ، فقصصت جانباً من ذكرياتى فيما يتعلق بالتدخين ، وهذا لا يعنى أننى رجل ذو تاريخ ، فإنتى ما زلت فى أول الشباب ، ولكن الموقف هو الذى يفرض على أن أحدث عن ذكرياتى التى بقيت فى خاطرى حول آفة التدخين المنتشرة الفاشية التى تعود على البشرية بمختلف الأضرار والأخطاء . وأنا على الرغم من شبابى مدخن قديم ، ومذنب تائب ، وغريق كانت أمواج العادة السخيفة الأثيمة وهى عادة التدخين تتلاعب بى ، وتدنينى من حلقى العاجل خطوة بعد خطوة ، ولكننى نجوت بفضل الله ورحمته .

ولعل المدخن التائب ، الذى جرب الدخان ، وأدرك ما فيه من سيئات ، يكون حكمه على هذه العادة أقرب إلى الصحة والحقيقة من حكم الشخص الذى لم يدخن ولم يجرب التدخين عملياً لمدة كافية للاقتلاء والاختبار وكذلك يكون حكمه أصدق من المدخن الذى لا يزال واقفاً تحت تأثير التدخين ، والذى لا يدرك الفرق بين حالة التدخين وحالة تركه . . أما من ذاقه ثم أغلت من أمره فقد خبر الحالين ، وعرف الموقفين ، فكان بهما جد خبير .

فلندخل فى صميم الذكريات ، ولنعد إلى الوراء أعواماً تقارب العشرين ... فى ذلك الحين كنت غلاماً أحاول حفظ القرآن الكريم ، لأنتسب إلى أحد المعاهد الدينية التى تتبع الأزهر الشريف ، فقد طاهد والذى

التدخين !! .. ولكنى كنت أعود فأستذكر قامه
أبى الفارعة، وكراهيته الشديدة للتدخين، وحملته القاسية
العنيفة على كل من يراه مدخنا، كبيراً كان أو صغيراً،
وقسمه بأنه لو رآنى أو رأى أحد أبنائه يدخن لما
كان له من جزاء سوى طرده من بيت الأسرة إلى الأبد .
كنت أتذكر ذلك فأخاف ، وأرتد عن الإقدام
على التجربة ..

ووسوس الشيطان ذات يوم لصديق فجعل يغربنى
على التدخين ، ويذكرنى بالحرية الشخصية ، ويقول لى إن
التدخين شعار الرجولة . وسبب الهدوء والراحة ،
وهو الذى يزيل الهموم ، وينظم التفكير ، وينشط
الدهن ، ويقضى على الاضطراب والحزن ، ويبعث على
الإبداع فى الخيال ، ويحرك القلم إلى إنتاج الأدب . . .
وتبرع — عفا الله عنه وغفر له ما قدمت يداه — فأتابع
تشجيعه القولى بتشجيعه العملى ، فأعطانى ذات يوم لفافة
بالمجان ، لأشربها على سبيل التجربة ، بعد أن استنفد كل
وسائل الإغراء فى تزيينها وتحبيذها إلى فأخذت اللفافة
وأشعلتها ، وأقبلت عليها أدخنها بلا وعى ولا تدبر .

أحسست حين ذاك بدوار فى رأسى ، وضيق فى
تنفسى ، وازدياد فى حرارة جسمى ، وغليان فى دمى ،
وغشاوة فى عيني فلا أكاد أبصر ما أمامى ، وخيل لى أن
الحجرة قد ضاقت بى فكأنها قبر . . . وشكوت لى إلى
الصديق ما أجد ، فهون على الأمر ، وابتسم لى ، وقال :
لا تخف ، فأنت الآن فى دور التجربة والتمرين ، ولن
تدرك لذة التدخين إلا إذا تعودت عليه ، وعرفت كيف
تبلع الدخان ، وكيف تقسم نفثه بين فك وأنفك ، وذلك
لن يتم لك إلا إذا صرت من اللدمنين !! .

وأخذ الزميل — غفر الله له — يواصل إغراءه لى
يوماً بعد يوم ، فأحياناً يعطينى سيجارة كاملة ، وأحياناً
« نخمس » أى يأخذ خمسة من اللفافة وآخذ خمسة ،
أو بمعنى آخر : تقسمها فيما بيننا ، وهكذا .

ومضت فترة من الزمن ، وأنا أروم نفسى بما أزمه
أو يزعمه لى زميلى من لذة التدخين وتقويمه للمزاج ،
وبعد هذا قلت لنفسى : إلى متى سأظل حالة على غيرى ؟ وإلى
متى سأظل أدخن على حساب زميلى ؟ . وكيف أكون

« كينفاً » ثم أخاصم « الدكان وبائع الدخان » ؟ . لابد
من الاسترجال ، ولا بد من إظهار الفتوة « والصبوة »
وسمت بى قدماى لأول مرة فى حياتى إلى بائع الدخان
وأنا أؤخر رجلاً وأقدم أخرى ، واشتريت علبة لفائف
بقرش صاغ ، فقد كان ذلك الدخان الملعون رخيصاً يوم
ذاك ؛ ولبت يدي قطعت يوم امتدت إلى هذا الشراء ،
بل لبت رجلى شلت يوم سمعت بى إلى هذا الوباء ، فقد
كتبت على نفسى صك الشقاء بهذا البلاء الممثل فى
ذلك الداء ! .

* * *

وجدت فى الطريق مشكلة أخرى ؛ فكيف السبيل
إلى حلها ؟ . إننى أستطيع أن أدخن فى الحجرة مع زميلى
دون أن يرانا أحد ، ولكننا نقضى أغلب يومنا خارج
الحجرة ، وشهوة التدخين تتملكنا فى كثير من الأحيان ،
فكيف لى بالتدخين إذا كنت بين زملائى فى المعهد ،
أو كنت على مرأى من شيوخى وأساتذتى ؟ . الويل لى
كل الويل إذا عرف عني واحد من هؤلاء . أتى من
شاربى الدخان . وإلا كتبت عندهم فى قائمة المجرمين
الآثمين ! . نعم الويل كل الويل لى إذا فعلت ذلك ،
فقد كنت يومها فى بيئة محافظة هى أشبه بالبيئة التى
يتحدث عنها الأستاذ المازنى فى كتابه « خيوط العنكبوت »
حين يسرد بعض ما حدث له أثناء تجربته لشرب الدخان
فى شبابه مع أصدقائه من التلاميذ فيقول :

« وإذا شاقنا الدخان ، واشتهينا أن نقلد الرجال ،
اكتتبنا بالملايم ، وجعناه قرشا نبتاع به علبة فيها عشر
سجائر ، نقسمها بالحق ، ونبغى لنا مكاناً غير مطروق
ندخنها فيه — كما يفعل الحشاشون الآن — حتى إذا
صارت أعقابها على الأرض ، ذهبنا نمحو أثر التدخين
من أصابعنا وأفواهنا ، فأما أيدينا فنغسلها ، ونفركها ،
ونكاد نسلخ جلدنا ، وأما أفواهنا فنعالجها بالقرنفل ،
أو « السنسن » ، والأول أفضل لأنه أرخص ، ثم يقبل
بعضنا على بعض ، فهذا يفتح فمه على آخره ، وذلك بمد
أنفه ليشم به ، حتى نطمئن ، وهيئات ، فما كنا نجرؤ
مع ذلك كله أن نخطب أهلنا عن قرب ، لئلا يشموا
رائحة الدخان » ! .

نعم كنت في بيئة لا يزال فيها مسكة من الخجل والحياء ، ولذلك كنا نلاقى الشدائد في إيجاد المكان المناسب للتدخين ، حتى لا تضبط متلبسين بتلك الجريمة ، فتارة يحتفى الإنسان في الرحاض ، وتارة يلجأ إلى الحقول البعيدة ، وتارة يهرب من يومه المدرسى ، لينزوى في ركن قصي يدخل فيه تلك اللقافة اللعينة . . أما اليوم فقد عم البلاء وطم ، ورحل الحياء فلا حياء ، فالشباب يدخلن أمام زملائه وأمام أساتذته وأمام والديه ، فإذا خوطب في ذلك ثار وغضب ، وبكى لضياح الحريات والسكرامات !! .

وبتوالى الأيام أصبحت من المدمنين ، وكان التدخين بطبيعة الحال على حساب طعامنا وثيابنا وأخلاقنا ودروسنا ، فنحن نفضل شراء « السجائر » على شراء الغذاء الطيب ، ولنا كل فولا وطعمية وفجلا ، ثم لنشرب بعد ذلك سيجارة ، فهذا خير من اللحوم بلا سيجارة . . ولتتمزق جواربنا دون النفقات إليها ، فإن ثمن الدخان كثير ، والموارد قليلة ، واسننا من أبناء كبار الأثرياء ، فليس يفيض معنا بعد شراء « الكيف » ما نستطيع به شراء هذه اللوازم .. وأحيانا كان الشوق إلى السيجارة يطوف بالإنسان أثناء الدرس ، فلا يفهم من المدرس شيئا على الإطلاق ، وقد ينتحل الأعذار ليفر من الدرس بعيدا ثم يدخل لقاقة

وجنى التدخين على أخلاقنا ، فكان الواحد منا يثور ويسب ويلعن ، ويخرج عن حدود الذوق وقواعد الأدب مع زملائه ورفقائه ، إذا لم يعدل « مزاجه » في مواعيده ، أو حاول أحد أن يحول بينه وبين التدخين ولو على سبيل المزاح ، لأن أمثال المدخنين تقول : « الهزار في كل شيء إلا في السيجارة » . !

وجنى التدخين على دروسنا ، فقد كان يطلب منا أحيانا أن نشترى بعض الكتب ، أو الأدوات اللازمة لدروسنا فمناطل ونسوف ، لأننا نحب التدخين ، وهو يستولى على أكثر « المصروف » فلتمذهب الدروس ، ولتتحرق الكتب ، مادامت علبة السجائر موجودة في الجيب وهي حامرة ، أو نصف حامرة على الأقل .. !

و كنت أثناء إقامتي في دمياط بعيدا عن أهلى وأمرتى في « البجلات » ، ولسكن العام قد انصرم ، والامتحان قد انتهى ، والعودة إلى القرية قد حلت ، فكيف السبيل ؟ . ! وماذا يكون الموقف لو عرف والدى أننى أدخلت ؟ . ! إن لآثى سلطة الوالد الربى الذى يرى من حقه ، بل من واجبه ، أن يؤدب أولاده بالضرب والطرد والحرق من كل شىء ، والتكليف بمرهق الأعمال عند الإذئاب أو الإهال ، فكيف السبيل ؟ . ! لو أننى أفضت في تبيان الأوقات والجهود والحيل والوسائل والأساليب والطرق التى كنت أبذلها وأقتن فيها ، وأتعب من أجلها ، وأضحي بالكثير في سبيلها ، حتى تنهى لى فرص التدخين ، لhal الكلام سامعيه ، وأفزع المتدبرين فيه ، ولست أبالغ حين أقول إن الشباب الذين يدخلون ، ويوجدون في بيئات محافظة ، يضيعون ما يقرب من نصف أوقاتهم في الحصول على الدخان ، وتميئة أمكنة التدخين ، والقيام بالتدخين نفسه بعيدا عن الأنظار والرقباء ؛ بينما كان يجب أن ينفقوا هذه الأوقات العزيزة الغالية فيما هو أجدى وأنتع ، ولسكن أين من يسمع ؟ . !

أذكر من بين الأمثلة الكثيرة أن شهرا من شهور الصوم مر على وأنا مع أمرتى في القرية ، وكنت أتناول السجور كل ليلة مع والدى وإخوتى ، ثم أعود للنوم مع أخى الصغير في حجرة خاصة ، فكيف أدخل « لأحبس » الطعام كما يعبر المدمنون ؟ كيف ذلك وأنا لا أستطيع أن أدخل أمامهم ، ولا أن أدخل في حجرة النوم ، لأننى أخاف أن يرانى أخى الصغير ، فينقل ذلك إلى أبى ، وهناك تكون الطامة . . !

أتعرف ماذا كنت أصنع ؟ . . كنت أذهب عقب السجور كل ليلة إلى المرحاض بحجة قضاء الحاجة ، ثم أغلق الباب على إحكام حتى لا تتسرب الرائحة ، ثم أدخل في حذر وترقب ، وأنا أظن في كل نائمة أو همسة رقيقا أو جاسوسا فإذا ما انتهت السيجارة أخذت في العملية المرهقة ، وهى عملية التخلص من آثار الجريمة ، فأبدأ بتبوية المرحاض بفتح بابه وإغلاقه مرات سريعة متتابعة ، حتى تزول الرائحة ، خشية من دخول فرد من الأمرة بعدى ..

وأظن بعد ذلك أنظف في أصابعي وأسنانى بلهاء حتى أظن أن الرائحة الخبيثة المنتنة قد زالت ، وبعد وقت طويل أعود إلى النوم !!

وذات يوم ضاقت يدي عن ثمن الدخان ، والويل للدخن إذا فقد ثمن الدخان ؛ فقضيت يوماً أسود الجوانب مغبر الأنحاء ، وأنا مضطرب الأعصاب هائج الشعور ، لا أكاد أعقل ما يقال ، ولا أحكم ما أحمل ؛ وخفاة رأيت زميلاً يدخن فهرعت إليه أسأله سيجارة ، وكان كزاً بخيلاً ، فاعتذر بأنه لا يوجد معه غير التي يدخنها ، فسألته أن تقسمها معي ، فقال في غلظة : من فضلك لا تعكر على مزاجي . فنالني من الحزى ما لا أستطيع تصويره ، ولم يتعرض للدخنون لمثل هذه المواقف المحزنة ، وخاصة في صفوف الصغار ، أو في البيئات الشعبية التي لا يتبأ لها دائماً كل ما تريد . . .

وكدت أنعلم من التدخين كما يتعلم مئات من المدخنين السرفة والاحتيال ، بل أصرح بأنني وقعت ذات يوم في شيء من هذا القبيل ، ففي الليلة التي عقد فيها قران أخى الكبير ، وكل إلى أن أقوم بمهمة توزيع السجائر على المدعوين في الاحتفال ، جرياً على المادة السيئة التي ابتليت بها القرى المصرية ، وأعطاني أخى عدداً كبيراً جداً من علب السجائر ، فاحتجرت لنفسى من بين هذا العدد ست علب كاملة ، وأخفيت في مكان أمين ، وظللت أدخن منها بحانا حيناً من الزمان !!

وعلمني التدخين الكذب ، فقد بلغ والدي ذات يوم أثناء مدة تدخني أنني أدخن ، فلم يصدق ذلك ، لأنه يعتقد في الصلاح والصدق والأمانة ، ولكنه أراد أن يطمئن قلبه ، فدعاني إليه وسألني : هل تدخن . . ؟ فكذبت عليه وقلت : كلا . . . فقال : هل تقسم على ذلك . فاندفعت في البهتان وقلت : أقسم . . . فصدقني وتركني ، ولولا التدخين ما ارتكبت هذه المعصية ، فقد ألجأتني التدخين اللعين إلى الكذب والحنث في اليمين وعلى من ؟ . على الذي يثق بي كل الثقة . . . وآء من تأنيب الضمير الذي ظل يرهقني بجبروته مدة طويلة من الزمن كلما تذكرت هذه الخطيئة !!

وعلمني التدخين ضيق الصدر وقلة الصبر ، فأنا أثور

لأقل سبب ، وأنا أمزق ما يبدي من أوراق إذا استبنت فيها أى تشويش أو خطأ ، وأنا أضرب إخوتي الصغار إذا ما اقتصروا شيئاً حيناً كان يمكن علاجه بالنصح والإرشاد . . .

وعلمني التدخين أنني كنت لا أحسن مهلاً من الأعمال ، ولا أتقن واجباً من الواجبات ، وخاصة في الصيف ، فإذا بدأت مهلاً بعد التدخين أخذ العرق يتصبب من جسمي ، وأحسست بدوار في رأسي ، وتمالك في أعضائي ، وتراخ في مفاصلي ، فإما أن أجنح إلى الراحة ، وإما أن أضع ضغناً على إباله ، وأزيد الطين بلة ، فأعود إلى التدخين . . .

ثم مر على حين من الزمن أخذت فيه الشهادة الابتدائية من معهد دمياط ، ثم انتقلت إلى الزقازيق فأخذت من معهد الضخم الشهادة الثانوية ، ثم انتسبت إلى كلية اللغة العربية — حرسها الله معقلاً للغة القرآن وأدب العرب — وكان قد مر على أثناء ذلك ما يقرب من ثمانية أعوام وأنا أدخن ، حتى أصبحت عبداً ذليلاً لعادة التدخين الضارة المهلكة ، لا أستطيع أن أنهض بعمل إلا إذا دخنت ، وبأخييتي في واجباتي إذا لم أتمكن من التدخين . . .

وأخذت أصابعي تصفر ، وأسنانى تسود ، وفي تسوء رائحته ، وأخذ وزني ينقص ، وشهيتي للطعام تقل ، وقوتي الجسمية تتناقص ، ونشاطي يخمد ، فلا أثبت لنضال ، ولا أستطيع أداء عمل شاق ، ونسيت السرعة في الجري ، أى مع أنني كنت أمهره ، فقد ظلمت زمناً أجيد لعب كرة القدم ، ومع ذلك أسكت على مصيبتى ولا أحاول الخلاص من بلوتي ، فكان حالي قريباً من حال المازني حين يصور ابتلاءه بيلوى التدخين فيقول : « إذا كانت لهذا الدخان — أو التبغ أو الطبايق كما سماه لي المرحوم الشيخ حمزة فتح الله وكنت قد سألته عنه — أقول : إذا كانت لهذا الطبايق مزية أو فائدة فلست أعرفها ، فما عرفت إلا ما أثمرته بي شجرته اللعينة من الآلام والمتاعب ، وقد تعلققت به وأنا صبي حدث ، ولكن أمي صرفتني عنه برفق ولطف ، غير أنني ما بلغت التاسعة عشرة حتى كنت قد اعتدته ، وبعد

على التدخين في إحدى وثلاثين سنة لكان لي الآن فيلا جميلة ، أنعم بالعيش فيها . أليس كذلك ؟ » اه .

وإزداد الحال سوءا حينما اختلطت في آخر السنة الأولى من إقامتي في القاهرة بجماعة من الأصدقاء الذين ينتسبون إلى الأدب ، ويسرفون في التدخين ، وكنا نقضى الليل إلا أقله في سهر قائم على المجادلة والمناقشة والمراجعة ، ولكن سحب الدخان لا تنقطع من جوه أبداً . فغلب الدخان موجودة بكثرة أمامنا وهي مفتحة لكل راغب في التدخين ، وأصنافها مختلفة ولكل منها مذاق خاص ، والرغبة في التدخين لا تزال تتجدد ، فكان المكان الذي يجلس فيه يتحول من أجل هذا إلى مدخنة كثيفة سوداء ، وكنت أخرج من هذا السهر الطويل وأنا محطم القوى ، منهوك الأعصاب . مصدوع الراس متخاذل الأعضاء ..

وكنت كلما فكرت في ترك التدخين تسيطر على الضعف الإنساني المرذول ، وتراخت عزيمتي وإرادتي وأخذت أغالط نفسي ، فتارة أسوف وأؤجل ، وتارة أزعم أنني سأقلل من التدخين شيئاً فشيئاً حتى أتوب عنه نهائياً ، وهكذا دون فائدة أو جدوى !

وفي ليلة لا تنسى ، خرجت من السهرة مع الرفقاء بعد أن أسرفت في التدخين ، وأخذت طريقاً إلى البيت وأنا في منتصف الليل ، وصدرى حرج ضيق ، وأقماسي تلهث ، ولكنني أطالج الداء بالداء فأواصل التدخين .. وبلغت المنزل ، وأخذت أقطع درجات السلم القليلة ، وكأني أحاول تحطيم الجلاميد ، فكما صعدت درجة أحسست الألم يتزايد ويتضاعف . وما بلغت الباب حتى أخذت أدق دقات عنيفة بيدي ورجلي . لأوقف الخادمة حتى تفتح لي فأرتدى على الفراش ، وكانت بقية السجارة لا تزال في يدي وأنا لا أشعر بها ، ولا ألقى إليها بالاً ؛ ولجأة فتح الباب ، وإذا صوت والدتي التي قدمت من الريف على غير ميعاد بلفاني لأنما ومؤنباً ومؤدباً ومهذباً ؛ بعد أن رأت السجارة في يدي وأدركت من حركاتي مبلغ ضمني وتخاذلي ، وبدأت تتحدث حديث الوالدة الحريصة على مصلحة ابنها ؛

طام واحد حاولت مرة أن أدرك تراما (وكنت على مسافة مئة متر منه ، أو حول ذلك) فركضت ولكنني كففت لأنني تعبت ونهجت ولهنت كالكلب ! فتجسرت ، ثم ثرت فأخرجت عليه السجائر فرميت بها ، وآليت ألا أعود إلى هذا البلاء . واستطعت أن أنقطع عن التدخين ستة شهور أو سبعة بلا عناء ثم عدت إليه شيئاً فشيئاً بفضل الإخوان ، فقد كان الواحد منهم يقدم لي سيجارة فأعتذر ، فيلح فأقبل .. وتكرر هذا فاستنيرشوقي إليه ، ورجعت إلى شرمما كنت ، ولازلت أدخل إلى الآن ، فلي إذا استثنينا الشهور الستة أو السبعة التي أشرت إليها ، إحدى وثلاثون سنة وأنا أدخن هذا السم ، ولا أستطيع أن أجزم بأن الدخان هو المسؤول عما أظاني ، ولكنني أعرف أن صوتي أجش ، وصدرى خربان ، وقلبي متمعب ، ومعدني فاسدة ، وأعصابي تالفة وعقلي يقول لي : إنه من الخير الانقطاع عن التدخين ، ولكن أعصابي تخونني ، ولا خير فيما يقوله الأطباء لي ، ومن دواعي الأسف أنه لا يوجد Agence يشتري منه المرء بديلاً من هذه الأعضاء القديمة . وقد رأيت مرة رواية سينمائية فيها لص فانتك يتحمل عن زميل له جريمة ويبوء عنه بإثمها وعقابها . وقد سأله زميله في ذلك فقال إنه قد وقع وانتهى أمره ، فإذا أرادوا عقابه على كل ما اقترف فسيخرج على الأقل بالسجن مائة سنة ، فإذا يضره أن تضاف إلى ذلك بضعة سنوات أخرى .. وأنا أتعزى بمثل ذلك وأقول لنفسى إنه لا فرق بين أن يعمش المرء إلى الثمانين أو يقصر عن ذلك ، أو يزيد فلن يحس الذي يموت بما فاتته أو نقصه ، ربما دامت النهاية هي هذا الفناء المحتوم فقد استوى طول العمر وقصره ! . ولكن هذا كما ترى ليس إلا مغالطة ليس فيها عزاء جدي . لأنه متى كان لا بد من الفناء فخير للمرء أن يعيش بصحة ، أو كما يقول المتنبي : (آلة العيش صحة وشباب) .

حاشية : متوسط ما أنفقته على التدخين يتراوح بين أربعة جنيهات وخمسة في الشهر ، وكان المتوسط قبل الحرب العظمى للماضية حوالي جنيهين (قال المازني كلامه هذا سنة ١٩٤١ م) . فلو أنني كنت ادخرت ما أنفقته

المخلصة في نصيحها ؛ وإذا هي تختم حديثها بذلك الإنذار
الخطر : إني لن أرضى عنك مادمت تدخن ! .

ودارت بي الأرض الفضاء . وتذكرت جرائم هذا
الدخان اللعين معي . وماجناء علي من نكبات ، وتذكرت
مكانة الوالدة في نفسي . ومنزلتها عند الله . وكنت في
حالي هذه على أتم الاستعداد للاستغفار والمتاب .
فإذا بصوتي يهدح كأنه نبرات باك حزين . وإذا بي
أماهد في صدق وعزم وإصرار علي ترك التدخين إلى
الأبد . وإذا بي أخرج ما بقي في جيبى من لفائف .
وأسحقها بقدمي ، وأقول ، وكأني أهز الأرض كلها
بقولي : لن أعود إلى التدخين مادمت حيا . وهذا
عهد وميثاق ! .

ونمت للمعجزة ، ورفعت عن بصرى الغشاوة ،
وهديت بعد ضلالة ، ولم يمر على سوى أسبوع كنت
فيه مضطربا لبعض الشيء من جراء الانتقال من حال
التدخين إلى حال التوبة والطهارة ، ثم استقمت بعد
ذلك على الطريق ، فعادت إلى نضرة وجهي ومرعتي في
صلى ، وزاد وزنى ، وتفتحت شهيق للطعام ، وأصبحت
قادرا على المشي الطويل والجري العنيف ، وعاد لاسناني
لونما الطبيعي ، وزالت رائحة فمى ، وزال الضيق عن
صدرى ، وأصبحت متحررا من إيسار العادة ، منطلقا من
عبوديتي للمكييف ، وأنقعت ما كنت أفقه في التدخين على
وجوه صالحة تنفعنى ، وبذلك كسبت ماديا وصحيا ونفسيا ،
وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .
يا شباب الجيل الجديد ، إنها نصيحة مجرب ، وإنها
لكلمات أخ مخلص ، فاحذروا التدخين اللعين ، فإنه نكبة
لا يقدر أضرارها إلا من أصيب بها ، وإذا كنتم ترون
كهولا قد اعتادوا التدخين ، وعجزوا عن تركه فأولئك
أمة قد سبقت بما لها وما عليها ، ولم يعد في عزائمها وقود .
أما أنتم ، ففيكم الأمل ، وفيكم الرجاء ، فاشكروا
نعم الله عليكم ، واحذروا هذه المقابح والنناكر ، ولا
تقرطوا أو تسوفوا ، فمعظم النار من مستصغر الشرر ،
والله السئول أن يجعلكم جنودا طاهرين مطهرين ،
لتكونوا هداة هذا العالم الحائر المسكين .

أحمد الشرباصي

المدرس بالأزهر الشريف

شكر وتقدير

١ - أهدي حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ
الجيليل الشيخ أحمد الشرباصي نسخة من كتاب
« صفوة التصوف » للقدسي ، وهو الكتاب الذي
حققه فضيلته وشرحه ونشره للمرة الأولى إلى صاحب
المعالى اللواء محمد صالح حرب باشا الرئيس العام لجمعيات
الشبان المسلمين العالمية ، فبعث معاليه إلى فضيلته
الخطاب الآتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزي الفاضل الأستاذ الكبير أحمد الشرباصي
أعزني قلبك ، أو اخلع على ييانك كلما أهديتني
نفحة من وحيك ، أما أن تفرقني في فيض فضلك ،
وتوقفي موقف العاجز عن بعض شكرك فما أنصفقتي ؛
وإني أعيذك - وأنت الكريم - أن تخصب أنت
وأجذب أنا . . . فإن لم تفعل فاقبل العذر ، وتجاوز
عن التقصير . والسلام عليك ، والدعاء لك » .

٢٣ / ٢ / ١٩٥١ م المخلص : محمد صالح حرب

٢ - وكذلك أهدي فضيلة الأستاذ مجموعة
من كتبه إلى مكتبة نقابة الصحفيين بالقاهرة فتلقى
من السكرتير العام للنقابة خطاب الشكر الآتي
وتاريخه ١٥ مارس سنة ١٩٥١ م ، وهو بامضاء
الأستاذ مصطفى بك القشاشي :

« حضرة صاحب الفضيلة العالم الجليل الشيخ أحمد
الشرباصي الأستاذ بمعهد القاهرة بالأزهر الشريف .
سلام الله وتحياته وبركاته ، وبعد : فقد تشرفت
مكتبة النقابة بمجموعة من مؤلفاتكم النفيسة ،
التي تفضلتم بإهدائها إليها ، وعددها ستة كتب .
ونحن إذ نذكر لحضرتكم هذا الفضل الموفق ،
لا ننسى تسجيلنا لكم الشكر المذخور .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته »

السكرتير العام لنقابة الصحفيين

مصطفى القشاشي